سكينة بنت الحسين

أشرنا فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » عند الكلام عن الباطنية إلى أن أكثر ما يحتل رؤوس المسلمين من الافكار والعقائد ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وأن الدعاة نجحوا فى حشو تلك الرؤوس الجوفاء بالخرافات والوساوس والأضاليل ، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التى تسكن سماء القاهرة من عترة سيدنا الحسين !

واليوم نجرد القلم لتصوير السيدة سُكَيْنة ، لا لنقنع من لا يقتنع بأنه لا خير فى الطواف حول القبور ، ولا لنجرّح سيدة هى منذ أزمان موضع التقديس ، ولا لنكبت قوماً لا همّ لهم إلا أن يتصيدوا لنا الهفوات على حساب الدين ، إنما نكتب اليوم ، كما كتبنا من قبل ، متأثرين بفكرة واحدة كانت ولا تزال محور ما نُبْدِئُ فيه وما نعيد ، وهى أن الانسان مظهر من مظاهر الحياة ، لا مفرّ له من أن يكون مصدراً للخير والشر ، والظلمات والنور ، والهدى والضلال

والحياة تريده كذلك ، فلو قد أراد أن يَحُور ملكا مسكنه فى السماء

أو أن يصير شيطاناً دأبُه البغى والإغواء ، لما استطاع إلى ذلك سبيلا . إنما هو أداة لهذه الحياة الغوية ، الرشيدة ، التى تطيب حين تشاء ، وتخبث حين تريد ، بلا رقيب ولا حسيب !

والسيدة سكينة كانت بنت الطبيعة قبل أن تكون بنت الحسين كما كان أبوها غَذِىَّ الفطرة ، قبل أن يكون سِبط الرسول ، فلا يغضب قوم إن ذكرنا أنها كانت فى عفافها نزقةً طائشة ، تؤثر الخفة على الوقار ، وتهوى أن يخلّد حسنها فى قصائد الشعراء ، فقد قضت الطبيعة أن تكون المرأة كذلك ، إلا أن قدر لها المسخ فعادت شُرْطيًّا[1] يلبس أثواب النساء

وهذه محاولة نحتاج إليها فى مصر لنسوّغ ما نكتبه عن السيدة سكينة فى مثل هذا العصر الذى يفيض بأخبار التردد والإشفاق ، أما صورة تلك السيدة كما رسمها الأولون فهى صورة طبيعية لاغرابة فيها ولا شذوذ ، ولو كتب عنها فصل فى مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية لتلقاه أهل الغرب بالقبول ، وعدوا حياتها المرِحة دليلا على تأصّل الحضارة فى تلك الأسرة التى سادت الشرق زمناً غير قليل

(١) الصواب في الشرطى سكون الراء ، والتحريك خطأ لأنه نسبة الى الشرط الذى هو جمع ، والشرطة في الاصل الكتيبة

ويا ليتنى أعرف متى يتفق الناس على أصول الاخلاق . ففى بعض ما ننكر اليوم صور من الحياة الاجتماعية كانت فى العصور الماضية من السائغ المألوف ، وفى بعض ما نألفه ونرضاه أغاط من العادات والتقاليد كانت مما يكره الأقدمون ، حتى الألفاظ والتعابير يُديلها العرف ، وتُحيلها الأوضاع ، وأشدنا حرصاً على الأدب المكشوف يندى وجهه أمام طائفة من الكلمات لم يكن يتحرج منها المتجملون المهذّبون فى الزمن القديم ، فلا يظنّ ناس أن ما ينكرونه على السيدة سكينة كان يقاس فى عصرها بنفس ما عندهم من المقاييس . وإن كانت عناصر التحرُّج والتزمُّت غير جديدة فى البيئات الأسلامية ، فما أظن هذه السيدة سلمت فى صلتها بابن أبى ربيعة من متورِّع يرميها على طُهرها بالخلاعة والمجون

وأعود فأقول : إنى أكتب هذا الفصل وأنا أضمر الحب والاجلال لتلك السيدة النبيلة ، التى قدرت نعمة الله عليها ، فدلّت وتاهت بما وُسِمت به من الملاحة والجمال ، وعاشت فى رعاية الحسن والحب غير حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما ينهى مثلها عن التبذل فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء

* * *

حياتها الادبية

كانت السيدة سكينة حريصة على أن تعيش عيشة نابهة ملؤها الزهو والاعجاب ، ويظهر مما نقل عنها من شتى الأحاديث أنها كانت سليمة الذوق فى اختيار الوصائف ، وكان بيتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء ، وكانت ترعى الحياة الأدبية رعاية لاتخلو من قسوة وعنف ، فتفاضل بين المعانى والأغراض ، وتحبه من تشاء من الشعراء بلاذع النقد وموجع التجريح ، وكانت تهتم بنوع خاص بالمعانى الوجدانية التى تقال فى وصف المرأة وفى الخضوع لما لها من السطوة والجبروت. ولها حديث ممتع فى نقد جرير والفرزدق وجميل وكثيِّر ونصيب ، أثبتناه فى البحث الاول من كتاب « الموازنة بين الشعراء » وناقشناه هناك ، فلا نعود إليه الآن . ونكتفى بايراد حديثها مع راوية جرير وراوية كثير وراوية الاحوص ، حين اجتمعوا بالمدينة وافتخر كل رجل منهم بصاحبه ، وذهبوا إليها يحكِّمونها لما كانوا يعرفون من بصرها بالمعانى الجيدة ، فقد قالت لراوية جرير بعد أن استأذنوا عليها فأذنت لهم وعرفت ما كان من أمرهم : أليس صاحبك الذى يقول

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى من الطُّروق ؟ [١] قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول

يقرّ بعينى ما يقرُّ بعينها وأحسن شىء ما به العين قرَّتِ

فليس شىء أقرّ لعينها من النكاح ، أفيجب صاحبك أن يُنكَح ؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول

فلو تركت عقلى معي ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلى

فما أرى بصاحبك من هوى ، إنما يطلب عقله . قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده . قبَّحه الله ، وقبَّح شعره ! ألا قال .

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فلا صلحت دعدٌ لذى خُلّة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلّقا

(١) الطروق : زيارة الليل سمى كذلك لحاجة من يقدم ليلا . الى طرق الباب ، أى دقه

باتا بأنعم ليلة وألذّها حتى إذا وَضَح الصباح تفرقا

قال نعم . قالت : قبحه الله وقبح شعره . ألا قال : تعانقا

فهى كما يرى القارىء قاسية عنيفة تتلمس الهفوات ، وتعد السيئات ، وتخاطب الرواة بلهجة خشنة جافية لارفق فيها ولا إيناس، وما كانوا ليحتملوها لولا جمالها وسيطرتها على ناحية من الحياة الأدبية فى ذلك العصر : هى تقدير الشعر الذى قيل خاصة فى التشبيب بالنساء . ومن ذا الذى يرضى بأن تظلمه سيدة يلوذ بجمالها النُّبل والجاه والجمال ؟ فما كل ظالم بغيض ، ولا كل مظلوم مغبون !

ومن مظاهر عنفها الذى كان يتلقاه الشعراء بالقبول حديثها مع الفرزدق وقد خرج حاجا ، فلما قضى حجه خرج إلى المدينة فدخل مُسلِّما ، فقالت له يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ قال أنا . قالت : كذبت أشعر منك الذى يقول :

بنفسى من تجنُّبهُ عزيزٌ علىّ ومن زيارته لِمامُ

ومن أُمسى وأُصبح لاأراهُ ويطرقنى إذا هجع النيام

قال : والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه . قالت : لا أحب ! فاخرج عني ! ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها . فقالت . يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ قال : أنا ! قالت : كذبت !

صاحبك أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يُزارُ
كانت إذا هجر الضجيع فراشها كُتم الحديث وعفّت الأسرار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكرّهم عليهمُ ونهار

فقال : والله لئن اذنت لى لأسمعنك أحسن منه ، فأمرت به فأُخرج ، ثم عاد إليها فى اليوم الثالث وحولها مُوَلَّدات كأنهن التماثيل فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأُعجب بها ، فقالت : يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ فقال : أنا ! فقالت : كذبت ! صاحبك أشعر منك حيث يقول .

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراكَ به وهنّ أضعف خلق الله أركانا
أتبعتهم مقلة انسانها غرق هل ما ترى تارك للعين إنسانا

فقال : يابنت رسول الله ! إن لى عليك حقا عظيما . ضربت إليك من مكة إرادة السلام عليك . فكان جزائى منك تكذيبى ومنعى من أن أُسمعك . وبى ماقد عِيل معه صبرى ، وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت . فإن أنا مت فأمرى أن أدرج فى كفنى وأدفن فى حر تلك الجارية . يعنى الجارية

التى أعجبته ، فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية فخرج بها آخذاً بزمامها . وأمرت الجوارى ان يضربن الدفوف تهنئةً لهما . ثم قالت : يافرزدق ! أحسن صحبتها فانى آثرتك بها على نفسى

فلو صحت هذه القصة لكانت دليلا على تسامح تلك السيدة وغفرها تهافت الشعراء على ما كانت تملك من المولّدات الحسان ، والشاعر لم يُخلق إلاّ ليشقى بالحسن ويُعذّب بالجمال ، وبقدر إحساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سَفَه المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصهم لما خُلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق . ويمكن الحكم بأن فى توفرها على نقد الفواحى الغزلية دليلاً على انها كانت تحيا حياة وجدانية معقّدة وكانت تجد فى تفقد الصلات بين أرواح الشعراء وقلوب النساء مفرًّا من لوعة الوجد المكتوم ، ووقدة الحزن الدفين

* * *

عنايتها بالغناء

وكانت سكينة تُعنى بنقد الغناء عنايتها بنقد الشعر ، وكان المغنون يقصدونها لذلك . فقد ذكر صاحب الاغانى أنها حجت فدخل اليها ابن سُرَيج

والغريض ، وقد استعار ابن سريج حلة لامرأة من قريش فلبسها فقال لها ابن سريج : يا سيدتى ! انى كنت صنعت صوتا وحسنته ، وتنوّقت فيه ، وخبأته لك فى حريرة فى درج مملوء مسكا فنازعنيه هذا الفاسق يعنى الغريض ، فأردنا أن نتحاكم اليك فيه ، فأينا قدمته فيه تقدم، قالت هاته ! فغناها :

عوجى علينا ربة الهودج ... انك إلاّ تفعلى تحرَجى [1]
انى أُتيحت لى يمانيّةٌ ... احدى بنى الحارث من مَذحِج
نلبث حولا كاملا كلهُ ... لانلتقى الا على منهج [2]
فى الحج ان حجت وماذا مِنىً ... وغيره إن هى لم تحجُجِ

فقالت سكينة : ما أشبهكما إلا باللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان لايُدرى أيهما أحسن

وكان ستها مألفا للمغنين ، وكانت تؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه اليهم من مُتع الغناء . حدث عبيد بن حنين الحيرى قال : كان المغنون في عصر جدى اربعة نفر : ثلاثة بالحجاز ، وهو وحده بالعراق ، والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد ، فكان يبلغهم ان جدى حنينا قد غنّى فى هذا الشعر :

(١) من الحرج وهو الأثم (٢) المنهاج الطريق ، ومثله النهج والمنهاج

هلاّ بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب
هذا ورُبّ مسوّفين سقيتهم من خمر بابل لذة للشارب
بكروا عليّ بسُحرةٍ فصبَحتُهم
من ذات كَرْنيبٍ كقَعْب الحالب (١)
بزجاجة ملء اليدين كأنها قنديل صبح فى كنيسة راهب

فاجتمعوا فتذاكروا امر جدى وقالوا : مافى الدنيا أهل صناعة شر منا . لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لانزوره ولا نستزيره ، فكتبوا اليه ، ووجهوا له نفقة ، وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت أولى بزيارتنا ، فشخص اليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره ، فخرجوا يتلقونه ، فلم يُر يوم كان أكثر حشرا ولا جمعا من يومئذ . ودخلوا فلما صاروا فى بعض الطريق قال لهم معبد : صيروا الىّ . فقال له ابن سريج : ان كان لك من الشرف والمروءة مثل مالمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا اليك . فقال : مالى من ذلك شيء . وعدلوا الى منزل سكينة ، فلما دخلوا اليها أذنت للناس اذنا عاما فغصت الدار

(١) الكرنيب ويسمى أيضاً المجيع بفتح الميم تمر يعجن بلبن ولبن يشرب على التمر . والقعب بالفتح القدح الضخم . وفي البيت شيء من الغموض

بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها. ثم انهم سألوا جدى حنينا ان يغنيهم صوته الذى اوله

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

فغناهم اياه بعد أن قال لهم : ابدؤوا أنتم . فقالوا : ما كنا لنتقدمك، ولا لنغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم اياه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعا وأخرجوا أصحاء ، ومات حنين تحت الهدم . فقالت سكينة : لقد كدر علينا حنين سرورنا . انتظرناه مدة طويلة : كأنّا والله كنا نسوقه الى منيته[1]

ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحا لما فى مقدماتها من مآثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف

* * *

ازواجها

تزوجت السيدة سكينة عدة أزواج ، أشهرهم مصعب بن الزبير، وقد رأينا أن نكتب عنه هنا كلمة وجيزة لأمرين : الأول أنه جمع بينها

(١) راجع أخبار حنين في الجزء الثانى من الاغانى

وبين عائشة بنت طلحة ، فهو وثيق الصلة بما عنينا به من ترجمة هاتين المليحتين ، الثاني انه يمثل الفتوة العربية أصدق تمثيل . ولا أعرف شيئا أحب إلى النفس من الحديث عن أولئك الفتيان الغطاريف ، الذين ملؤوا الدنيا بأخبار البأس والجود

ويكفى فى الاشادة بذكر ذلك الفتى ان يعرف القارئ انه أعيا عبد الملك بن مروان وعنّاه ، وان عبد الملك كان يوجّه اليه جيشا بعد جيش فيهزمون ، فلما طال ذلك عليه واشتد غمه أمر الناس فعسكروا ، ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما اراد الركوب قامت اليه أم يزيد ابنه وهى عاتكة بنت يزيد بن معاوية فقالت : ياأمير المؤمنين لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأى . فقال : ما إلى ذلك من سبيل ! فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب . فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال : وانت ممن يبكى ! قاتل الله كثيرا . كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

اذا ما أراد الغزو لم تثن همهُ ... حَصانٌ عليها نظم دُرٍّ يَزينُها

نهته فلما لم تر النهى عاقهُ ... بكت فبكى مما شجاها قَطينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج [1]

وقال عبد الملك يوما لجلسائه : من أشجع الناس ؟ فأكثروا فى هذا

(١) الامالى ج ١ ص ١٤

المعنى . فقال : أشجع الناس مصعب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وابنة الحميد بنت عبد الله بن عباس ؛ وولى العراقين ، ثم زحف الى الحرب فبذلت له الأمان والحِباء والولاية والعفو عما خلص فى يده فأبى قبول ذلك ، واطّرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه قُدُمًا يقاتل ، ما بقى معه الا سبعة نفر ، حتى قُتل كريما (١)

وكانت سكينة تخفى ما فى قلبها من مصعب ، وتكاتمه وجدها به ، وعطفها عليه . دخل اليها فى حربه مع عبد الملك وقد نزع عنه ثيابه ، ولبس غلالة ، وتوشح بثوب ، وأخذ سيفه ، فعلمت أنه لا يريد أن يرجع ، فصاحت من خلفه : واحزناه عليك يامصعب ! فالتفت اليها وقال : أوَكل هذا لى فى قلبك ؟ فقالت : إى والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنت أعلم ان هـذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال . ثم خرج ولم يرجع

ولما دخلت سكينة الكوفة بعد قتل مصعب خطبها عبد الملك فقالت : والله لا يتزوجنى بعده قاتله أبدا !

(١) الاغانى ج ١٨ ص ١٦٦

وفى رثاء مصعب يقول رجل من بنى أسد بن عبد العزى

لعمرك إن الموت منا لَمولَعٌ ... بكل فتًى رحب الذراع أريبِ
فان يك أمسى مصعب نال حتفه ... لقد كان صلب العود غير هيوب
جميل المحيا يوهن القِرن غَربهُ ... وإن عضه دهر فغير رهوب
أتاه حمام الموت وسط جنوده ... فطاروا سلالاً واستقى بذنوب[1]
ولو صبروا نالوا حِبًا وكرامة ... ولكنهم ولّوا بغير قلوب

وقالت سكينة ترثيه

فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذى ... يرى الموت إلا بالسيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماما

* * *

جمالها

كانت السيدة سكينة إحدى نوادر الجمال فى العصر الذى ظهرت فيه ، وكانت تنافس عائشة بنت طلحة معبودة العيون والقلوب فى ذلك الحين ، وكانت حريصة مُسرفة فى الحرص على جمالها ، حتى ليذكر

(١) الذنوب بفتح الذال المعجمة الدلو

صاحب الاغانى أنه خرجت بها سِلعة [1] في أسفل عينها حتى كبرت ، ثم أخذت وجهها وعينها ، وكان درافيس منقطعاً إليها وفى خدمتها ، فقالت له : ألا ترى ما قد وقعت فيه ؟ فقال لها : أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم ! فأضجعها وشق جلد وجهها أجمع ، وسلخ اللحم من تحتها ، حتى ظهرت عروقها ، وكان منها شيء تحت الحدقة فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ، ثم سلّ عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع ، وردّ العين إلى موضعها وسكينة مضطجعة لا تتحرك ولا تئن ، حتى فرغ مما أراد ، وزال ذلك عنها وبرئت منه ، وبقى أثر تلك الحزازة فى مؤخر عينها فكان أحسن شيء فى وجهها من كل حلى وزينة ، ولم يؤثر ذلك فى نظرها ولا فى عينها

وكانت تحدث عن نفسها فتقول : أُدخلت على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة ، وكانت ابنتها من مصعب جِدّ جميلة فكانت تثقلها بالحلىّ واللؤلؤ وتقول : ما ألبستها إياه إلا لتفضحه

وكانت سكينة أحسن الناس شَعراً ، وكانت تصفّف جُمّتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه ، حتى عُرف ذلك ، وكانت تلك الجمة تسمى « السكينية » وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده

(١) السلعة : زيادة في البدن كالغدة

وحلقه . وفى هذا دليل على أنها صاحبة بدعة Mode فى تصفيف الشّعر وتنسيقه ، وكان تقليدها فى تلك البدعة مما يقدح فى أخلاق الرجال ، ولولا تحرُّج المسلمين الاولين من التصوير لرأينا كيف كانت الفتنة فى ذلك التصفيف ، ولعرفنا بُعد ما بين تلك البدعة وبدعة الشعر المقصوص فى هذا الجيل

* * *

أم هانىء

كانت السيدة سكينة تميل إلى الفكاهة والمزاح ، تخالط الأجلة من قريش ، ويجتمع اليها الشعراء ، فتمزج الجد بالهزل ، وتخلط الوقار بالمجون ، ولها فى الدعابة أحاديث طريفة . لسعتها يوماً دَبْرة [1] فقالت لها أمها : مالك يا سيدتى ؟ فضحكت وقالت : لسعتنى دُبيرة ، مثل الأُبيرة ، أوجعتنى قُطيرة ! وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة : إنه دخل علينا شامى ، فابعث إلينا بالشُّرَط . فلما أتى إلى الباب أمرت ففُتح له . وأمرت جارية من جواريها فاخرجت إليه برغوثاً ثم قالت : هذا الشامى الذى شكوناه !

وقيل لها يوماً : أمك فاطمة يا سكينة وأنت تمزحين كثيراً

(١) الدبرة : هي النحلة أو الزنبور

وأختك لاتمزح ! فقالت : لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة — تعني فاطمة — وسميتموني باسم جدتي التي لم تدرك الاسلام — تعني آمنة بنت وهب أم الرسول . وكانت سكينة تسمى آمنة ، وسكينة لقب

وكانت مع ميلها المفرط إلى الدعابة عفيفةً نقية العرض ، لايؤخذ عليها غير العبث البريء ، واللهو المباح

وكانت لاتخلو من الخيلاء : فقد رآها سفيان بن حرب ترمي الجمار ، فسقطت من يدها الخصاة السابعة فرمت بخاتمها . وكانت فيما يظهر ضيقة الصدر في معاملة الأزواج . ويرجع ذلك إلى غيرتها الشديدة وعنفها في مراقبة العشير : فقد روى أبو الفرج الاصبهاني ان زيد بن عمرو بن عثمان خرج إلى مال له مغاضباً لسكينة ، وعمر بن عبد العزيز يومئذ والي المدينة ، فأقام سبعة أشهر ، فاستعدته سكينة على زيد وذكرت غيبته مع ولائده سبعة أشهر ، وانها شرطت عليه انه إن مس امرأة ، أو حال بينها وبين شيء من ماله ، أو منعها مخرجا تريده ، فهي خلية . فبعث إليه عمر فأحضره ، وأمر ابن حزم ان ينظر بينهما ، فجاءت سكينة وزيد جالس عند ابن حزم وفاطمة امرأة ابن حزم جالسة في الحجلة . فقال ابن حزم : أدخلوا سكينة وحدها فقالت :

والله لا أدخل إلا ومعي ولائدي. فأدخلن معها. فلما دخلت قالت : ياجارية ! ائتني بهذه الوسادة ، ففعلت ؛ وجلست عليها ، ولصق زيد بالسرير حتى كاد يدخل في جوفه خوفاً منها . فقال لها ابن حزم : يا ابنة الحسين ! إن الله يحب القصد في كل شيء . فقالت له : وما أنكرت مني ؟ اني والله واياك كالذي يرى الشعرة في عين صاحبه ولا يرى الخشبة في عينه ! فقال لها : أما والله لو كنتِ رجلا لسطوت بك ! فقالت له : يا ابن فرتنى ! لاتزال تتوعدني ! وشتمته وشتمها . فلما بلغا ذلك قال ابن أبي الجهم العدوى : مابهذا أُمرنا . فأمض الحكم ولا تُشاتم . فقالت لمولاة لها : من هذا ؟ قالت : أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم فقالت : لا أراك ههنا وأنا أُشتم بحضرتك . ثم هتفت برجال قريش فغضب ابن أبي الجهم . وقالت : أما والله لو كان أصحابي في الحيرة أحياءً لكفوا والله العبد اليهودي عند شتمه إياي . عدو الله ! تشتمني وأبوك الخارج مع يهود ضنانة بدينهم لما أخرجهم رسول الله الى أريحاء ! — فلما كلمها زيد وخضع لها قالت : ماأعرفني بك يازيد : والله لاترانى أبداً ! أتراك تمكث مع جواريك سبعة أشهر ثم أعود إليك ! والله لاترانى بعد الليلة أبدا !

وأظرف ما كان يجرى بينها وبين زوجها هذا تكليفها أشعب

بمراقبته وترسُّم خُطاه لتعلم ما كان يجتمع من وصل الولائد اللاح

* * *

صلتها بابن أبي ربيعة

ذكر صاحب الأغاني [١] أنه اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سكينة بنت الحسين : أنا لكنَّ به ! فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصَّورين وسمّت له الليلة والوقت ، وواعدت صواحباتها ؛ فوافاهن عمر على راحلته ، فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن . فقال لهن : والله إني لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله والصلاة في مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف إلى مكة وقال :

قالت سكينة والدموع ذوارف ... منها على الخدين والجلباب
ليت المغيرىَّ الذى لم أجزه ... فيما أطال تصيُّدى وطلابى
كانت ترد لنا المنى أيامنا ... إذ لا نُلامُ على هوًى وتصابى
خُبِّرت ماقالت فبتّ كأنما ... يرمي الحشا بنوافذ النُّشابِ [٢]

(١) في اخبار عمر في الجزء الاول (٢) النشاب . النبل

أسكين ما ماء الفرات وطيبهُ ... منى على ظمأ وفقد شراب
بألذّ منك وان نأيت وقاما ... ترعى النساء أمانة الغيّاب
ان تبذلى لى نائلاً أشفى به ... داء الفؤاد فقد أطلت عذابى
وعصيت فيك أقاربى وتقطعت ... بينى وبينهمُ عُرى الأسباب
تركتنى لا بالوصال مُمتعاً ... منهم ولا أسعفتنى بثواب
فقعدت كالمريق فضلة مائهِ ... فى حر هاجرة لِلَمْعِ سراب

وقال فيها :

أحب لحبك من لم يكن ... صفيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل نفسى لمرضاتكم ... وأُعتب من جاءكم عاتبا
وأرغب فى ود من لم أكن ... إلى وده قبلكم راغبا
ولو سلك الناس فى جانب ... من الأرض واعتزلت جانبا
ليممّت طِيتها إننى ... أرى قربها العجب العاجبا[1]
فما ظبية من ظباء الأرا ... ك تقرو دميث الرُّبى عاشبا[2]
بأحسن منها غداة الغميم ... وقد أبدت الخد والحاجبا
غداة تقول على رِقبةٍ ... لخادمها : يا احبسى الراكبا
فقالت لها فيمَ هذا الكلام ... وأبدت لها عابساً قاطبا

(١) الطية : الناحية (٢) تقرو : تتبع ــ ودميث الربى : سهلها ولينها

فقالت كريمٌ أتى زائراً يمرّ بكم هكذا جانبا
شريف أتى ربعنا زائراً فأكره رجعته خائبا

وذكر صاحب الأغانى فى قصة أولئك النسوة مع عمر بصورة أخرى فى أخبار الغريض فحدثنا أنه وافاهن على رواحله والغريض معه وانه قال عند انصرافه إلى مكة

ألمم بزينب إن البين قد أفدا قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

فلما كان بمكة قال : يا غريض ! انى أريد أن أخبرك بشىء يتعجل لك نفعه ، ويبقى لك ذكره ، فهل لك فيه ؟ قال : افعل من ذلك ماشئت وما أنت أهله . قال إنى قلت فى هذه الليلة التى كنا فيها شعرا فامض به إلى النسوة فأنشدهن ذلك وأخبرهن أنى وجهت بك فيه قاصداً . قال نعم : فحمل الغريض الشعر ورجع إلى المدينة فقصد سكينة وقال لها : جُعلت فداكِ ياسيدتى ومولاتى ! إن أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى اليك قاصدا . قالت : أوَليس في خير وسرور تركته ؟ قال : نعم ! قالت : وفيم وجّهك أبو الخطاب حفظه الله ؟ قال : جعلت فداكِ ! ان ابن أبى ربيعة حملنى شعراً وأمرنى أن أنشدكِ اياه . قالت فهاته . فأنشدها :

ألمم بزينب إن البين قد أفدا قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا

قد حلفت ليلة الصّورين جاهدةً وما على الحر إلا الصبر مجتهدا
لِتربها ولأخرى من مناصفها لقد وجدت به فوق الذى وجدا
لو جُمِّع الناس ثم اختير صفوتهم شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

فقالت سكينة : ياويحه ! فما كان عليه أن لا يرحل فى غده ! ووجهت إلى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر ، وقالت للغريض : هل عملت فيه شيئا ؟ قال : قد غنيته ابن أبى ربيعة ، قالت فهاته ! فغناه الغريض فقالت سكينة : أحسنت والله وأحسن ابن أبى ربيعة ! لولا انك سبقت فغنيته عمر قبلنا لأحسنا جائزتك . يابنانة ؟ أعطه بكل بيت ألف درهم ، فأخرجت إليه بنانة أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه .

وقالت سكينة : لو زادنا عمر لزدناك

هذا وأحب أن لا ينسى القارىء أننا اعتمدنا فى هذه الاخبار على الاغاني والأمالى وزهر الآداب . وقد لاحظنا من قبل أنه لا يبعد أن يكون بعض هذه الاخبار غير صحيح . فقد ذكر صاحب الاغانى فى موطن آخر [1] أن البيت :

« قالت سكينة » روى « قالت سعيدة »

وأن المراد سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف . وإنما غيره المغنون

(١) ج ١٦ ص ١٢

فجعلوا سكينة مكان سعيدة . وأن إسحق الموصلى غنى الرشيد يوماً

« قالت سكينة والدموع ذوارف »

فوضع القدح من يده وغضب غضباً شديداً وقال : لعن الله الفاسق ولعنك معه ! فسقط فى يد إسحق فعرف الرشيد ما به فسكن ثم قال : ويحك أتغنينى بأحاديث الفاسق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى و بنت رسول الله ! ألا تتحفظ فى غنائك وتدرى ما يخرج من رأسك ! عد إلى غنائك الآن وانظر بين يديك ! قال إسحق : فتركت هذا الصوت حتى نسيته ، فما سمعه منى أحد بعده [1] .

وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غُنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباء الاقدمون . أما صورتها فى رؤوس الصوفية فهى صورة القديسة التى تسيطر على الارض والسماء . وكل حزب بما لديهم فرحون ! .

(١) هذا الكلام نفسه يدل على أنه كان مفهوما إذ ذاك أن هذا الشعر قيل فى سكينة